سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

شرحُ

القواعد الأربع

للإمام محمد بن عبد الوهاب

للشيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم أنْ يتولّاكَ في الدُّنيا والآخرة، وأنْ يجعلكَ مبارَكًا أينما كنتَ، وأن يجعلَكَ ممّن إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَر، وإذا أذنبَ استغفر؛ فإنّ هٰؤلاء الثَّلاث عنوان السَّعادة.

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله، صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فإنّ هٰذه النّبذة المختصرة (**القَواعد الأربع**) من النّبذ المهمَّة، من مقال إمام هٰذه الدّعوة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وأهميتها تأتي بمعرفة مضادّات تلك القواعد الأربع، وأنّ الإخلال بهٰذه القواعد الأربع، أو عدمَ ضبط تلك القواعد يقع معه لَبس عظيم في معرفة حال المشركين وحال الموحِّدين، والابتلاء وقع بحال أهل التَّوحيد وبحال أهل الشِّرك، والله -جلَّ وعلا- في القرآن بَيَّن ما يجب من حقه في توحيده وبَيَّن الشِّرك به بيانًا عظيمًا.

وهٰذه القَواعد الأربع مأخوذة من نصوص الكتاب والسّنّة ومن معرفة حال العرب -كما سيأتي-، فهي قواعدُ عظيمة تَعْصِمُ مَن حَفِظَها وعلِمَ معناها مِن أنْ يكون عنده تردُّد في مسألة الحُكم علىٰ أهل الإشْراك وعلىٰ وجوب إخلاص الدِّين لله -جلَّ وعلا- وكيف يكون ذٰلك.

إمام الدَّعوة رَحِمَهُ اللَّهُ كعادته في كثير من رسائله يبتدئها بدعاء لمن يقرأ تلك الرِّسالة أو لمن وُجِّهت إليه، وهٰذا -كما هو معلوم- فيه التَّنبيه علىٰ أنَّ مَبنىٰ العلم ومَبنىٰ الدَّعوة الرَّحمة، الرَّحمة والتَّراحم بيْن المعلِّم والمتعلِّم، والرَّحمة والتَّراحم بين الدَّاعية والمدعو؛ لأنّ الرَّحمة في ذٰلك هي سبب التَّواصل، قال جلَّ وعلا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[1]، يعني: فبِرحمةٍ من الله لنت لهم، فبرحمة من الله لنت لهم؛ و(مَا) في هٰذه الآية صلة لتأكيد الجملة، وهي التي تسمَّىٰ الزَّائدة؛ لزيادة التَّأكيد؛ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يعني: فبرحمة من الله لنت لهم، فبرحمة من الله لنت لهم.

فالدُّعاء هٰذا ناتج عن الرَّحمة، وهٰكذا ينبغي علىٰ المعلِّم وعلىٰ الدَّاعية وعلىٰ الآمر بالمعروف وعلىٰ النَّاهي عن المنكر أن يكون راحمًا للخلق، أن يكون رحيمًا بهم، كما وصف الله -جلَّ وعلا- نبيَّه -عَلَيْهِ

---

(١) سورة: آل عمران، الآية (١٥٩).

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[١] ، وقال: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف حال الدَّاعي إلىٰ الله مع أهل المعصية وأهل النفور عن الحق قال في ذٰلك:

واجعل لوجهك مقلتين كلاهما ... من خشية الرَّحمٰن باكيتان
لو شاء ربُّك كنتَ أيضًا مثلهم ... فالقلبُ بين أصابع الرَّحمٰن[٣]

حتىٰ حين تُوقع الحدود وتُطبّق فهي تطبَّق علىٰ وجه الرَّحمة لا علىٰ وجه الانتقام، رحمةً بهٰذا الذي استحقَّ تلك العقوبة أن تَسلَّط عليه إبليسُ والشَّيطان فجعله مستحقًّا لذٰلك، كالأسير من أحبابك إذا وقع أسيرًا في أيدي العدو.

فهٰذا التَّقديم بالدُّعاء من الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ فيه التَّنبيه علىٰ ذٰلك.

ودعا وكان فيما دعا أنّه سأل الله -جلَّ وعلا- أن يجعلنا (**ممّن إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَرَ، وإذا أذنبَ استغفَرَ؛ فإنّ هٰؤلاء الثَّلاث عنوان السَّعادة**).

(**إذا أُعطيَ شكر**): لأنَّ العطاء من الله -جلَّ وعلا- نعمة، والله -جلَّ وعلا- يحبّ الشَّاكرين من عباده.

والشُّكر يكون بلسان المقال، ويكون بالعمل:

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾[٤]، بالمقال وبالعمل.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[٥]، هٰذا من جهة العمل.

---

(١) سورة: الأنبياء، الآية (١٠٧).

(٢) سورة: التوبة، الآية (١٢٨).

(١) قال ابن القيم في «الكافية الشَّافية في الانتصار للفرقة الناجية» (ج٤/ ص٣١ ط الأولىٰ ١٤٢٧ بإشراف بكر أبو زيد):

واجعل لقلبك مقلتين كلاهما ... بالحق في ذا الخلق باصرتان
فانظر بعين الحكم وارحمهم بها ... إذْ لا تُرَدُّ مشيئة الدَّيَّان
وانظُر بعين الأمر واحملهم علىٰ ... أحكامه فهُما إذًا نظران
واجعل لوجهك مقلتين كلاهما ... من خشية الرَّحمٰن باكيتان
لو شاء ربك كنت أيضا مثلهم ... فالقلب بين أصابع الرَّحمٰن

(٤) سورة: لقمان، الآية (١٤).

(٥) سورة: سبإ، الآية (١٣).

﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[١]، هٰذا من جهة القول والعمل.

ولهٰذا اختلف -أو افترق- الشُّكرُ عن الحمد:

- **فالشُّكر** يكون عن نعمة، وأمَّا **الحمدُ** فقد يكون لنعمة أو في مقابل نعمة وقد لا يكون؛ يكون ثناءً مبتدَءًا.
- **والشُّكر** يكون باللِّسان وبالعمل، وأمَّا **الحمدُ** فيكون باللِّسان دون العمل.

في فروق بينهُما معروفةٍ عند أهل العلم، فهٰذا ممَّا ينبغي تدبّره، وهو أنَّ العبد إذا أُعطي عطاءً شكر عطاءَ الله جلَّ وعلا.

وشكرُ العطاء -كما ذكرنا- بالقول وبالعمل:

- أمّا بالقول فبأن يُنْسَب ذٰلك العطاء إلىٰ من أعطاه، وأن يُثنىٰ عليه به، وأن لا يُلتفت فيه إلىٰ غيره، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٢]، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[٣].
- ومن جهة أخرىٰ -جهةِ العمل- يكون الشُّكر باستعمال النِّعم فيما يحب من أنعم بها وأسْداها.

وهٰذا مما يحبه الله جل وعلا؛ بل من عظيم ما يحب الله من العبادات أن يكون العبد شاكرا؛ ولهٰذا قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[٥]؛ يعني: يا ذرية من حملنا مع نوح[٦]، إنه كان عبدًا شكورًا: كان كثير الشُّكر لله جلَّ وعلا.

قال أهل التَّفسير: كان إذا أكل الأكلة شكر اللهَ عليها، وإذا شرِب الشَّرْبَة شكر اللهَ عليها، وإذا اكتسىٰ شكر اللهَ علىٰ ذٰلك[٧]، يعني: أن يتبرَّأ من كلِّ حولٍ وقوةٍ فيما جاءه من النِّعم أو ممَّا يسَّره وأن يعترف بأنَّها من الله جلَّ وعلا.

وباب الشُّكر له صلة بالتَّوحيد، وكأنّ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين ذكر الشُّكر علىٰ العطاء، والصَّبر علىٰ البلاء، والاستغفار من الذَّنب، كأنَّه نظر إلىٰ حال الموحِّد، وخاطبه بما يجب عليه أن يكون معه دائمًا، فإنّ الموحِّد أنعم الله عليه بنعمة لا تَعْدِلُها نعمة؛ ألا وهي أنْ كان علىٰ الإسلام الصَّحيح، أنْ كان علىٰ

---

(١) سورة: البقرة، الآية (١٥٢).

(٢) سورة: النحل، الآية (٥٣).

(٣) سورة: النحل، الآية (٨٣).

(٤) سورة: سبإ، الآية (١٣).

(٥) سورة: الإسراء، الآية (٣).

(٦) «تفسير ابن أبي حاتم» (ج٨/ ص٢٣٠٩ ط مكتبة نزار، الرياض، الأولىٰ ١٤١٧).

(٧) «تفسير البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (ج٦/ ص٨ ط: دار الكتب العلمية، الأولىٰ ١٤١٣)، وانظرْ أيضا «تفسير ابن جرير» و«الدر المنثور» للسيوطي، وغيرها.

التَّوحيد الخالص الذي وعد الله أهله بالسّعادة في الدُّنيا والآخرة.

ولابدّ للموحِّد من الابتلاء؛ فسأل اللهَ له أنْ إذا ابتُلي صبر.

والابتلاء قد يكون من جهة الأقوال التي توجَّه إليه.

وقد يكون الابتلاء من جهة البدن.

وقد يكون من جهة المال أو غير ذٰلك.

قال: (**وإذا أذنبَ استغفر**)؛ لأنَّ الموحّد لابد وأن يكون معه شيء من الإعراض، و لابدَّ أن يقع الذَّنب؛ إمَّا من الصَّغائر، وإمَّا من الكبائر، والله -جلَّ وعلا- من أسمائه "**الغفور**"، ولا بدَّ أن يظهر أثر ذٰلك الاسم في بريئته وملكوته.

لـهٰذا يحب اللهُ من عبده الموحِّدِ المخلص أن يكون دائم الاستغفار، ولابد للموحّد من ذٰلك، والعبد إذا ترك عظيم الاستغفار جاءه الكِبر، والكِبْر يحبط كثيرا من العمل.

لهٰذا قال هنا: (**وإذا أذنبَ استغفر، وهٰؤلاء الثلاث عنوان السعادة**)، فإذن هٰذه متلازمة في حال كلِّ موحِّدٍ، وهي: الشُّكر علىٰ العطاء، والصَّبر علىٰ البلاء، والاستغفار من الذَّنب والعصيان، وكلّما عَظُم العبد معرفةً بربه كلَّما عظَّم هٰذه الثَّلاث، وكلَّما عظم التَّوحيد في القلب عظُمت هٰذه الثَّلاث، حتىٰ يصير العبدُ لا يرىٰ سوىٰ الله -جلّ وعلا- في استحقاق شيء من أعماله وتصرُّفاته، فإن غفل في ذٰلك كان استغفاره ليس استغفار الذي لا يفقه، ولهٰذا كان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة،[1] وفي رواية في الصَّحيح أنه: «**كان يستغفر الله في المجلس الواحد مائة مرّة**».[2]

والموحِّد عليه خطر؛ خطر الغرور، الغرور بأنه من أهل التَّوحيد، أو من المحققين لاتباع السَّلف، أو ممَّن علِم هٰذا العلم، ثم لا يكون في قلبه من الخضوع والذُّل -الذي يعلمه الله منه- ما يكون ذٰلك سببًا لقَبول هٰذه الوسيلة، وهي وسيلة التَّوحيد إلىٰ الله جلَّ جلاله، وشأن الله أعظم، وطلبَ من عباده شيئًا قليلا، ولهٰذا عظم أمر التوحيد، وَقَبُحَ جدًّا الشرك وما جرَّ إليه.

(١) أخرجَه البخاري رَحِمَهُ اللهُ (ح٦٣٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجَه الترمذي رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٤٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٨١٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

[المتن]

اعلمْ أرشدكَ اللهُ لطاعته أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم: أن تعبد الله مخلصًا له الدِّين كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

فإذا عرفتَ أنّ الله خلقَك لعبادته فاعلم أنّ العبادة لا تسمّىٰ عبادة إلّا مع التَّوحيد، كما أنّ الصَّلاة لا تسمّىٰ صلاةً إلّا مع الطّهارة؛ فإذا دخل الشِّركُ في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطَّهارة.

فإذا عرفتَ أنَّ الشِّرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النَّار عرفتَ أنّ أهمّ ما عليك معرفة ذٰلك؛ لعلّ الله أن يخلّصك من هٰذه الشَّبكة، وهي: الشِّرك بالله الذي قال الله تَعَالىٰ فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2]، وذٰلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه.

[الشرح]

هٰذه المقدمة مدخل لهٰذه القواعد، وأوّل ذٰلك (أنّ الحنيفية) هي (ملة إبراهيم عليه السلام)، وجعل الله -جلَّ وعلا- إبراهيم (حنيفًا) يعني: مائلا عن طريق الشِّرك إلىٰ التَّوحيد الخالص.

والحنيفية هي: الملة التي مالت عن كلِّ باطل إلىٰ الحقّ، وابتعدت عن كلِّ باطل إلىٰ الحقّ، وهي مِلّة أبينا إبراهيم عليه السلام؛ كما قال جلَّ وعلا: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[3]، وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾[4].

حقيقةُ ملَّة إبراهيم هي: تحقيق معنىٰ (لا إلٰه إلَّا الله)؛ كما قال -جلَّ وعلا- في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وهٰذه الكلمة هي كلمة (لا إلٰه إلَّا الله)، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، هٰذه هي كلمة التَّوحيد:

﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾: هٰذا هو النِّصف الذي هو النَّفي في كلمة التَّوحيد؛ يعني: قول (لا إلٰه) معناه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

(إلَّا الله) يعني: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ فأعظم تفسير لكلمة التَّوحيد هو هٰذه الآية حيث قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا

---

(١) سورة: الذَّاريات، الآية (٥٦).

(٢) سورة النساء، الآية (٤٨)، وكذٰلك الآية: (١١٦).

(٣) سورة: آل عمران، الآية (٦٧).

(٤) سورة: النَّحل، الآيتان (١٢٠-١٢١).

تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

ولهٰذا قال أهل العلم: إنَّ كلمة التَّوحيد (**لا إلٰه إلَّا الله**) فيها نفي، وفيها إثبات:

والنَّفي فيه البراءة من كل معبود سوىٰ الله جلَّ وعلا، ومن عبادة كل ما سوىٰ الله جلَّ وعلا؛ لأنَّ عبادة ما سوىٰ الله جلَّ وعلا باطلة.

وإثبات العبادة لله جلَّ وعلا وحده سبحانه، يعني: إنزال العبودية الحقّة المستحَقَّة في واحد وهو الله جلَّ جلاله.

هٰذه هي ملَّة إبراهيم، وهٰذه هي الحنيفية، وهي التي أمر الله -جلَّ وعلا- نبيَّه بالاستمساك بها؛ ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[1] ، فملَّة إبراهيم هي التَّوحيد.

وإذا عرفتَ هٰذا، فإنَّ العبادةَ لا تُقبل إلا بالتَّوحيد، وذٰلك من مثل الطَّهارة للصَّلاة، فإنّ التَّوحيد شرط قَبول العبادة؛ يعني الإخلاص، والطَّهارة شرط صحَّة الصَّلاة، فكما أنّه لا تصِحّ الصَّلاة إلَّا بطهارة، فكذٰلك لا تصحّ عبادة أحد إلَّا إذا كان موحِّدًا، ولو كان في جبهته أثر السُّجود، وكان صائمًا في النَّهار قائمًا في الليل فإنّ شرط قَبول ذٰلك أن يكون موحّدًا مخلصًا؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِىَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[2] ، وقال -جلَّ وعلا- في الكفَّار: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[3].

فعظيم العبادة وكثرة العبادة إذا لم تكن مع الإخلاص فإنها غير مقبولة؛ كما أنَّ الرّجل يصلِّي صلاة عظيمة يطيل فيها القيام، ويطيل فيها الرُّكوع، ويطيل فيها السُّجود، ويحسِّنُها جدًّا، وقد دخل فيها علىٰ غير طهارة!؛ هٰذه صلاة غير مقبولة بالإجماع؛ لأنّ الطهارة شرط صحة الصَّلاة؛ كما ثبت في الصَّحيح أنَّ النبي ﷺ قال: «**لا يقبَل اللهُ صلاةَ أحدكم إذا أحدث حتىٰ يتوضأ**»[4]، «**لا صلاة إلا بطُهور**»[5]، وهٰذا شرط متَّفقٌ عليه.

وهٰذا تقريبٌ لهٰذه المسألة العظيمة، وإلَّا فإنّ شرط الإخلاص والتوحيد لقَبول العبادة أعظم من شرط الطَّهارة لقَبول الصَّلاة؛ لأنَّه إذا صلّىٰ محدِثًا متعمِّدًا فإنّ في تكفيره خلافا بين أهل العلم، وأمَّا إذا عَبَدَ اللهَ مشركًا فإنَّه بالإجماع ليس مقبول العبادة، وبالإجماع هو كافر؛ لأنَّه أشرك بالله -جلَّ وعلا- الشِّركَ الأكبرَ الذي لا يُقبل معه عمل.

---

(١) سورة: النحل، الآية (١٢٣).

(٢) سورة: الزمر.

(٣) سورة:الفرقان.

(٤) أخرجَه البخاري رَحِمَهُ اللهُ (ح٦٩٥٤)، واللفظ له، ومسلم رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجَه مسلم رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٢٤)، بلفظ: «**لا تقبل صلاة بغير طهور**» من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

إذا تقرَّر ذٰلك فإنّ هٰذا الأصل يجعل المرءَ يخاف ويفرح:

- يخاف من الشِّرك وأن يكون من أهله.
- ويفرح أن جعله الله -جلَّ وعلا- من أهل التَّوحيد.

وفَرَحُه بِأَنْ جعله الله من أهل التَّوحيد يوجب شُكر ذٰلك والمحافظة عليه.

وخوفه وهربه من أن يكون من أهل الشِّرك أو أن يأتيه بعض الشِّرك، يجعله دائم الحذر أن يعْتَرِيَ عبادته أو عقيدته أو أقواله شيء من الشِّركيات؛ لأنَّ الشِّركيات إذا كانت من الشِّرك الأكبر فإنها مُحبطة للعمل، وإذا كانت من الشِّرك الأصغر فإنَّها أعظم من البدع والمعاصي المختلفة -يعني: من حيث الجنس-، وهٰذا لا شكّ يجعل المرء الخائف الرّاجي -يعني: الخائف الفرح؛ الفرِح بالتَّوحيد، الخائف من الشِّرك- يجعله يطلب هٰذه القواعد التي تجعله في يقينٍ من أمْره.

والتَّوحيد والشِّرك في دعوة الإمام المُصلح رَحِمَهُ اللَّهُ لمن تأمّلَهُ قد يكون معه شيء من التردُّد أو الشَّك في صحة ما جاء به الشَّيخ من جهة تقرير المسائل، ومن جهة الحكم علىٰ أهل الشِّرك والإشراك؛ لأنّ المسألة عظيمة؛ أنْ يكون أحد ممَّن يقول: **لا إلٰه إلَّا الله محمد رسول الله** ويصلِّي ويزكِّي ويصوم ويحجُّ ويتعبَّد ويكون من أهل العبادات العظيمة ومن أهل الصّلاح -كما يقول الناس- ثم يُقال: إنَّ عملَه الذي عمله من الشِّركيات، أو لَمَّا لم يكفر بالطاغوت يجعل عمله هٰذا كَلا شيء، هٰذه عظيمة، وكيف تستقرُّ في النُّفوس؟

فربَّما حدث -من جهة النَّظر- في النَّاس الذين يتعبَّدون العبادات العظيمة وهم واقعون في الشِّرك، ربَّما تعاظم بعض النّاس أن يكون أولٰئك من المشركين.

وهٰذه القواعد لتأصيل هٰذه المسألة العظيمة، وهي: أنّ الأمر يُنظر فيه إلىٰ حقِّ الله، وإنَّما أتىٰ الخلل من جهة نظر النَّاس إلىٰ حق المخلوق؛ إلىٰ واقع المخلوق، ولٰكن لو نظروا إلىٰ حق الله جلَّ وعلا؛ الذي خلق الإنسان فسوّاه، وعدله، والذي خلق السَّمٰوات علىٰ هٰذا النَّحو العجيب، وهٰذه الأرض، وأقام الدَّلائل علىٰ وحدانيته في ربوبيته، وجعل ذٰلك في النَّفس، وفي الآفاق، وفيما حوله، يجعل أنَّه لا حجة لمشركٍ علىٰ الله -جلَّ وعلا-، ولٰكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ بعث الرُّسلَ رحمة؛ لإقامة الحجَّة ولإعلان النَّذير.

[المتن]

القاعدة الأولى:

أن تعلم أنّ الكفّار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّون بأنّ الله تعالىٰ هو الخالِق المدبِّر، وأنّ ذٰلك لم يُدْخِلْهم في الإسلام، والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[(١)].

[الشَّرح]

القاعدة الأولىٰ: أنّ توحيد الرُّبوبية لا يُدخل أحدًا في الإسلام، توحيد الرُّبوبية ليس هو المطلوب؛ فإنّ معرفة العرب بأن الله -جلَّ وعلا- هو الخالق، وهو الرّزّاق وحده، وهو المحيي وحده، وهو المميت وحده، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وهو الذي إليه الأمر، وهو الذي يُنزل المطر، وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، هٰذا كلّه يُقِرُّون بأن الذي سخّر ذٰلك وخلقه هو الله جلَّ وعلا، ومع ذٰلك ما نفعهم، ولم يجعلهم اللهُ -جلَّ وعلا- بذٰلك من أهل الإسلام، قال جلَّ وعلا: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[(٢)]، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ ﴾ يعني: الإيمان بربوبيَّته ﴿ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ في عبادته[(٣)].

تنظر إلىٰ حال كفَّار العرب: مُقِرُّونَ بأكثر أفراد الرُّبوبية، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ يعني: الذي يفعل هٰذه الأشياء هو الله وحده، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يعني: أتقولون ذٰلك وتُقِرُّون بوحدانيته في الرّبوبية فلا تتَّقونه في عبادته وحده وترك الإشراك به؟!؛ فأقام عليهم الحجّة بما أقرّوا به علىٰ ما أنكروه.

وهٰذه هي طريقة القرآن في إقامة الحجَّة علىٰ المشركين، فإنّ من براهين التَّوحيد -توحيد العبادة- : أن تُقام الحجَّة بتوحيد الرُّبوبية؛ لأنَّ من كان هو الفاعل وحده -يعني: هو الخالق وحده، هو الرَّزاق وحده ... إلىٰ آخر أفراد الرُّبوبية- فإنَّه هو الذي يستحقُّ العبادة دونما سواه.

ولهٰذا قال سبحانه منكِرًا علىٰ المشركين: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾[(٤)]، وقال سبحانه:

---

(١) سورة: يونس.

(٢) سورة: يوسف.

(٣) انظُر «تفسير ابن جرير الطبري» (ج١٦/ ٢٨٦) ط الثانية، مكتبة ابن تيمية القاهرة، تحقيق محمود شاكر، وانظر أيضا «تفسير ابن أبي حاتم» (ج٧/ ص٢٢٠٧-٢٢٠٨) وغيرهما.

(٤) سورة: الأعراف.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾[١]، ووصف الذين جعلهم المشركون آلهةً بأنهم عاجزون، وليس لهم قدرة، وليس لهم خَلْق، وليس لهم صفات تجعل أولٰئك يتوجَّهون إليهم: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[٢]، هٰذا مَثَل الذين توجّهوا إليهم بالعبادة، وإقرار المشركين بالرُّبوبية لم يُدخلهم في الإسلام.

نستنتج من ذٰلك: أنّ إقرار مَنْ بَعْدهم بالرُّبوبية لا يعني أنهم مؤمنون، فإذا أتىٰ آتٍ وقال: أنا مؤمن بأنّ الله هو الرَّب، وهو الخالق، هو ربي، وهو الذي يرزقني، وهو الذي أحياني، وهو الذي يميتني؛ هٰذا لا يُعَدّ مؤمنًا الإيمان الشَّرعي؛ يعني لا يُعَدّ مسلمًا حتىٰ يأتي بالتَّوحيد.

ولهٰذا غلط المتكلمون حينما عرّفوا (**الإلٰه**) بأنّه القادر علىٰ الاختراع؛ قالوا: الإلٰه هو القادر علىٰ الاختراع.

فعندهم معنىٰ (**لا إلٰه إلَّا الله**) راجع إلىٰ الرُّبوبية، وهٰذا أعظم غلط علىٰ دين الإسلام؛ الذي غلط به المتكلمون علىٰ الدِّين، وعلىٰ الملَّة، حيث جعلوا الابتلاء واقعًا في الرّبوبية، فإذا أيقن بأنّ الموجب للأشياء والخالق لها هو الله فإنه يكون عندهم مؤمنًا مسلمًا، وهٰذا غيْر معنىٰ الألوهية؛ لأن (**لا إلٰه إلَّا الله**) معناها: لا معبود حقّ إلَّا الله جلَّ وعلا، فمعناها راجع إلىٰ العبودية لا إلىٰ الرُّبوبية.

إذن مراد الشَّيخ من هٰذه القاعدة المهمة اليقينية بأنَّ هٰذه القاعدة يقينية من حال الكفار وحال المشركين في أنَّهم مقرُّون بتوحيد الرُّبوبية ولم ينفعهم، ولم يُدخلهم في الإسلام، ولم يجعل لهم حقًّا؛ لأنهم أشركوا مع الله -جلّ وعلا- آلهة أخرىٰ، وعبدوا آلهتهم الباطلة، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[٣].

فإذا نظرنا في هٰذا الزَّمن وفي زمن الشَّيخ وما قبله وما بعده في أنّ هناك من يوقن بالرُّبوبية ولٰكنَّه يُشرك بالعبادة، فإنّ ذٰلك لا ينفعه، كحال الأوّلين، لأنَّ القاعدة: أن مشركي العرب كانوا يوقنون بالرُّبوبية.

واليوم قد يأتي علىٰ بعض النُّفوس ضَعف؛ إذا سمع من يقول: (إن شاء الله) أو سمع من يذكر الله -جلَّ وعلا- أو يقول عن الله هو ربُّه وهو مولاه أو نحو ذٰلك ظنَّه مسلمًا، وقنِعَ منه بذٰلك، وهٰذا لم يقع الابتلاء به أصلا، بل لابد أن يكون موحِّدًا في عبادته، يعني: يعبد الله بما جاء به المصطفىٰ ﷺ، ويكون متبرِّئًا خالصًا من الشِّرك وأهله.

---

(١) سورة: النَّمل.

(٢) سورة: الحج.

(٣) سورة: ص، الآية (٥).

[المتن]

القاعدة الثانية:

أنّهم يقولون: ما دعوناهم وتوجّهنا إليهم إلا لطلب القُرْبة والشَّفاعة، فدليل القُربة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾[1].

ودليل الشَّفاعة قوله تَعَالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[2].

والشَّفاعة شفاعتان:

- شفاعة مَنفيّة.
- وشفاعة مُثبَتة.

فالشَّفاعة المنفيّة ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، والدَّليل قوله تَعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾[3].

والشَّفاعة المثبَتة هي: التي تُطلب من الله، والشّافع مُكْرَمٌ بالشَّفاعة، والمشفوع له: من رضيَ اللهُ قولَه وعمَلَه بعد الإذن كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[4].

[الشَّرح]

هٰذه القاعدة الثانية في بيان حال المشركين في عبادتهم؛ عبدوا آلهة مع الله -جلَّ وعلا- ومن دونه.

ماذا يقصدون بهٰذه العبادة؟ هل يقولون: هي آلهة استقلالية؟ أم أنها وسائط؟

هٰذه القاعدة أفادت: بأنهم إنَّما كانوا يعبدون غير الله -جلَّ وعلا- علىٰ جهة الوساطة، علىٰ جهة القُربة، أو علىٰ جهة الشَّفاعة، يعني: يقولون: إنّ آلهتهم الباطلة تقرّبهم إلىٰ الله، أو ترفع حوائجهم إلىٰ الله، أو يقولون: إنَّها تشفع لهم عند الله جلَّ وعلا.

يعني: أن مشركي العرب لم يكونوا يطلبون من الآلهة استقلالًا، وإنَّما كانوا يطلبون من الآلهة علىٰ وجه الوَساطة، وهٰذه الوساطة من جهة القُربة ومن جهة الزُّلْفَىٰ، والجهة الثانية جهة الشَّفاعة؛ كما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (فدليل القُربة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) سورة: الزمر.

(٢) سورة: يونس، الآية (١٨).

(٣) سورة: البقرة.

(٤) سورة: البقرة، الآية (٢٥٥).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

زُلْفَىٰٓ ﴾[١])، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: آلهة، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ يعني: يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا﴾ وهٰذا حصر، ويسمَّىٰ عند علماء البلاغة: حصر قلب إضافي، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ يعني: ما نعبدهم لعلة من العلل إلَّا لأجل التَّقريب، فَهُمْ حصروا ما أرادوا في القربىٰ من الله جلّ وعلا، فَهُم أرادوا ما عند الله جلّ وعلا.

فإذن حين توجهوا إلىٰ هٰذه الآلهة الباطلة أرادوا ما عند الله، ولم يطلبوا منها استقلالًا، وإنَّما أرادوها زلفىٰ وقربىٰ إلىٰ الله جلَّ وعلا، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٢] فأرادوا بذٰلك القُربة.

ودليل الشَّفاعة قوله تَعَالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾[٣] الآية، والشَّفاعة: أن يطلبوا من الله -جلَّ وعلا- لهم الحوائج؛ لأنّ معنىٰ الشَّفاعة أن يضم المطلوب منه طلبه إلىٰ الطالب فيرفعه إلىٰ من عنده الأمر، هٰذا معنىٰ الشفاعة، فـ ﴿يَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، يعني: سيكونون طالبين لنا ما نريد، والله -جلَّ وعلا- لا يردُّ شفاعتهم؛ لأنهم مقرَّبون عنده.

وأصل شرك العالَم كان في جميع الفئات والطوائف كان علىٰ أحد جهتين:

أمَّا الجهة الأولىٰ فهي: الشرك بالاعتقاد بروحانيات الكواكب، كما كان شرك قوم إبراهيم عليه السلام؛ فإنَّ إبراهيم أتىٰ إلىٰ قوم يعبدون الأصنام التي هي مصوّرة علىٰ صور روحانية الكواكب؛ الكواكب الخاصَّة التي يعتقدون أنَّ لها تأثيرًا في الملكوت، عبدوا الأصنام أو الأوثان؛ لأنّ أرواح تلك الكواكب تحِلّ فيها؛ والشياطين تحلُّ في تلك الأصنام والأوثان وتخاطبهم، وربَّما حصّلت لهم بعض ما يريدون، فوقع الأمر بأن أشركوا، وزادوا علىٰ الشِّرك علىٰ اعتقاد أن الكواكب هي التي تفعل، وروحانية الكوكب هي التي تخاطب؛ قال جلَّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾[٤].

والعلماء اختلفوا: هل كان ناظرًا أم مناظرًا؟ والصَّحيح الذي يضعف غيرُه: أن إبراهيم عليه السلام كان في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ كان مناظرًا لا ناظرًا[٥].

---

(١) سورة: الزمر، الآية (٣).

(٢) سورة: الزمر، الآية (٣).

(٣) سورة: يونس، الآية (١٨).

(٤) سورة: الأنعام.

(٥) قال ابن كثير في «تفسيره» (ج٦/ ٩٧) مؤسسة قرطبة ط الأولىٰ، بعد أن ذكر قول الذين قالوا: إنه قال ذٰلك في صغره، والذي نقله أيضا ابن جرير في تفسيره: (والحق أنَّ إبراهيم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كان في هٰذا المقام مناظرا لقومه، مبيِّنا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام)، وبين =

والجهة الثانية: شرك قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وهو الشِّرك من جهة الاعتقاد بروحانية وأرواح الصَّالحين؛** قال تَعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[1]، وقد ثبت في صحيح البخاري[2] من حديث عطاء عن ابن عباس أنَّه قال: هٰذه أسماء رجال صالحين كانت في قوم نوح، و وقع الشّرك بهٰؤلاء الرِّجال لأنهم صالحون.

العرب ورثوا الشِّرك بالصالحين؛ فعبدوا أصنامًا متعدِّدة وأوثانا:

عبدوا اللَّات؛ واللّات كان مكانا، كان قبرًا تحلّ فيه روحانية ذاك -كما يعتقدون-، ومثّلوا عليه صنمًا فصاروا يعبدونه، وهي شياطين تتلاعب بهم.

وكذٰلك العُزَّىٰ؛ والعزّىٰ شجرة، ومَناة صخرة، وكان عند الشجرة رجل صالح يتعبد، وكان عند مَناة صالح يتعبَّد[3].

وجعلوا الصَّالحين وأرواح الصَّالحين والاعتقادَ فيهم سببا لكي يرفع أولٰئك الحوائج لهم إلىٰ الله جلَّ وعلا.

إذا تأمَّلتَ حال العرب وجدتَ أنّ الشِّرك حصل من العرب، كما أراد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقريره في هٰذه القاعدة الثَّانية؛ أنّ الشرك حصل من العرب -كما سيأتي- بأناس صالحين، أو أن الشِّرك وقع بالآلهة لأجل طلب القربة والشَّفاعة، لا لأجل أنّ هٰذه مستقلة لها شيء من الرُّبوبية، أو لها شيء من الألوهية الاستقلالية؟ لا، ولٰكن لها ألوهية علىٰ جهة التَّبَع، تُعبد لٰكن لأنها واسطة وليست آلهة مستقلّة، ولهٰذا قال جلّ وعلا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[4]، فإنهم يعتقدون أن هٰذه الآلهة وسائط علىٰ جهة القُربة والشَّفاعة.

الشَّفاعة في الكتاب والسنة - في النصوص - نوعان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة:

والشَّفاعة المنفية -كما ذكر الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ- هي: **الشَّفاعة فيما لا يقدر عليه إلَّا الله جلَّ وعلا؛** الشَّفاعة في

وجه ذٰلك الزمخشري في «الكشاف» (ج٢/ ص٣٦٦ ط الأولىٰ مكتبة العبيكان): (﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه، لأن ذٰلك أدعىٰ إلىٰ الحق، وأنجىٰ من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيُبطله بالحجة)، ونقله أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» (ج٤/ ص١٧٢) وقال: (فيكون هٰذا القول منه استدراجا لإظهار الحجة وتوسلا إليها كما توسل إلىٰ كسر الأصنام بقول: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٨-٨٩]، فوافقهم ظاهرًا علىٰ النظر في النجوم، وأوهمهم أن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ناشئ عن نظره فيها) انتهىٰ.

(١) سورة: نوح، الآية (٢٣).

(٢) أخرجَه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ح٤٩٢٠).

(٣) انظر «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لابن قيم الجوزية (٢/ ٢٦٠-٢٦٣،ت:خالد السبع).

(٤) سورة: ص، الآية (٥).

مغفرة الذّنب ممن لا يملك ذٰلك.

الشَّفاعة بمعنىٰ: طلب الدُّعاء؛ شفع يعني: طلب، والشَّفاعة هي الطَّلب، والمطلوب منه إمَّا أن يكون حيًّا حاضرًا، وإمَّا أن يكون ميتا؛ والحيّ الحاضر في الدُّنيا أو في عرصات القيامة جاءت الأدلة بجواز طلب الشَّفاعة منه، كما جاءت بذٰلك النُّصوص الكثيرة.

أمَّا الميّت فإنه ليس في دار عمل، وليس في دار طلب، وليس عند الله -جلّ وعلا- بالمكان الذي يطلب فيُعطىٰ ما طَلَبَهُ، ولٰكن تُطلب الشّفاعة من الله جلّ وعلا.

فالشَّفاعة المنفية هي التي نفاها الله -جلَّ وعلا- في كتابه، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾[1]، وكما قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾[2]، وكما قال جلَّ وعلا: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[3]، ونحو ذٰلك من الآيات التي فيها نفي الشّفاعة، هٰذه الشَّفاعة المنفية هي الشَّفاعة التي تكون من غير إذن الله، ولا رِضاه، وتكون بطلبها ممن لم يُمكَّن من ذٰلك، طلب ذٰلك من ميْت مهما كانت درجته، فإنه لم يُمكَّن من ذٰلك، لم يُمكَّن أن يَطلب الشَّفاعة.

ولهٰذا يكون طلب الشفاعة من الله جلَّ وعلا، وهٰذه هي الشَّفاعة النَّافعة؛ **الشَّفاعة المثبتة**، وهٰذا استطراد من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنىٰ الشَّفاعة الحقَّة، والرَّد علىٰ الذين تعلّقوا بالشَّفاعة الباطلة، وتفصيلها معروف في موضعه من كتاب التَّوحيد، ومن كتب أهل السُّنة في الشَّفاعة.

مُلخّص ذٰلك: أنّ الشَّفاعة المثبتة هي التي توفّرت فيها الشُّروط الشَّرعية، وأعظم هٰذه الشُّروط شَرْطَا الإذن والرِّضا؛ الإذن للشَّافع أن يشفع والرِّضا عن الشافع والرضا عن المشفوع له، قال جلَّ وعلا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[5]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[6]، وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[7].

فإذن الشَّفاعة المثبتة هي النَّافعة، لٰكن تنفع بشرْطي الإذن والرِّضا: الرِّضا عن الشَّافع وأن يكون ممن

---

(١) سورة: غافر.

(٢) سورة: البقرة.

(٣) سورة: الأنعام، الآية (٥١).

(٤) سورة: النَّجم.

(٥) سورة: البقرة، الآية (٢٥٥).

(٦) سورة: الأنبياء، الآية (٢٨).

(٧) سورة: الزخرف.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

شهد بالحق وهو يعلم، والرِّضا عن المشفوع له بأن يكون من أهل التَّوحيد.

ولهٰذا ثبت في الصَّحيح أن أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سأل النَّبيَّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قال: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، أَنْ لا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَىٰ الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَنْ قَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**»[1] قال العلماء: معنىٰ قوله: (**أسعد النَّاس**) يعني سعيد النّاس؛ فأفعل التَّفضيل هنا ليست علىٰ بابها في المفاضلة، وإنَّما هي بمعنىٰ (سعيد النَّاس)، كقوله جلَّ وعلا: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، والنَّار ليس فيها مَقِيلٌ حسن.

فإذن الشَّفاعة إنَّما هي لأهل الإخلاص، شفاعة النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وشفاعة الملائكة وشفاعة الصَّالحين وشفاعة العلماء يوم القيامة إنَّما هي لأهل الإخلاص، وأهلُ الإخلاص يطلبونها منَّ الله؛ فيقول المخلصُ: اللّٰهمَّ شفِّع فيّ رسولَك ﷺ يوم القيامة، اللّٰهم شفِّع فيّ ملائكتَك، اللّٰهمَّ شفِّع فيّ العلماءَ الصَّالحين، اللّٰهمَّ شفِّع فيّ عبادَك الذين تحبُّهم ويُحبونك، ونحو ذٰلك من الألفاظ.

فتُطلب الشَّفاعة من الله جلَّ وعلا، ولا تُطلب الشَّفاعة من المخلوق، لم؟ لأنَّ الشَّفاعة طلب الدُّعاء؛ إذا قال: أستشفع يعني: أطلب منك الدُّعاء، أطلب منك رفع حاجتي، وإذا رجع أمر الشَّفاعة إلىٰ الطَّلب صارت الشَّفاعة من أنواع الدُّعاء، فصار طلب أو دعوة غير الله شركًا أكبرَ.

ولهٰذا نقول: طلبُ الشَّفاعة من غير الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله -يعني من الأموات ونحو ذٰلك- فإنَّ هٰذه شرك أكبر؛ لأنَّها دعاء والدُّعاء يجب أن يكون مُخْلَصًا فيه لله جلَّ وعلا.

ﮊﮊ ◊ ﮉﮉ

---

(١) أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللهُ (ح٩٩).

(٢) سورة: الفرقان.

[المتن]

القاعدة الثالثة:

أنّ النَّبيَّ ﷺ ظهر علىٰ أُناسٍ متفرِّقين في عباداتهم، منهم مَن يَعبُد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصَّالحين، ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار، ومنهم مَن يعبد الشَّمس والقمر، وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرِّق بينهم، والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[١].

ودليل الشَّمس والقمر قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[٢].

ودليل الملائكة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾[٣].

ودليل الأنبياء قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾[٤].

ودليل الصَّالحين قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٥] الآية.

ودليل الأحجار والأشجار قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾[٦].

وحديث أبي واقدٍ اللَّيثي رضي الله عنه قال: خرجنا مع النَّبي ﷺ إلىٰ حُنين ونحنُ حدثاء عهدٍ بكفر، وللمشركين سِدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذاتُ أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط... الحديث[٧].

[الشَّرح]

هٰذه القَاعدة فيها مقدِّمة ونتيجَة.

أمَّا المقدِّمة فهي راجعة إلىٰ معرفة حال العرب بما أخبر الله -جلَّ وعلا- عنهم في عباداتهم، وآلهة

---

(١) سورة: الأنفال، الآية (٣٩).

(٢) سورة: فصلت.

(٣) سورة: آل عمران، الآية (٨٠).

(٤) سورة: المائدة.

(٥) سورة: الإسراء، الآية (٥٧).

(٦) سورة: النجم.

(٧) أخرَجه الترمذي رحمه الله (ح٢١٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

العرب الباطلة التي كانوا يعبدون متنوعة:

فمنهم من كان يعبد الشَّمس والقمر، وذكر لكَ دليل ذٰلك، وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[١]، وهٰذا نوع من العرب؛ طائفة كانت تعبد الشَّمس والقمر، ومن غير العرب أيضا.

ومنهم من كان يعبد الشَّجر والحجر[٢].

ومنهم من كان يعبد الملائكة، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ[٣] لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾[٤]، وكان من النَّاس من العرب وغيرهم من يُشرك بالملائكة.

ومنهم من كان يشرك بالأنبياء، كعيسىٰ عليه السلام، قال -جلَّ وعلا- في حقِّه: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾[٥]، فأُشرِكَ بعيسىٰ عليه السلام.

وأُشرك بالصَّالحين؛ قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[٦]، وقد جاء في سبب نزولها: أنَّه لمَّا نزل قول الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[٧] فرح العرب بذٰلك، وقالوا: سنكون مع عيسىٰ، وسنكون مع العُزير، وسنكون مع ... مع، ثم نزل قول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

فتوجَّهوا للصَّالحين بالعبادات المختلفة للرِّجال من الأنبياء والرُّسل والصَّالحين.

وتوجَّهوا أيضًا للأشجار والأحجار؛ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[٨].

توجَّهوا إلىٰ الشَّياطين والجن؛ ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[٩]، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ

---

(١) سورة: فصلت.

(٢) لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم].

(٣) وهٰذا علىٰ رواية ورش، أما رواية حفص عن عاصم ف: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ﴾.

(٤) سورة: سبأ.

(٥) سورة: المائدة.

(٦) سورة: الأنبياء.

(٧) سورة: الأنبياء.

(٨) سورة: النجم.

(٩) سورة: سبإ.

﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾[١].

هٰذه أصناف عبادات العرب جاءت في القرآن، وحال العرب ظاهرة فيها.

هل فرَّق الله -جلَّ وعلا- في أمره لنبيِّه بين فئة وأخرىٰ؛ فقال لهم: من عبَد الأشجار والأحجار والأصنام والشَّمس والقمر قاتلوه، وأمَّا من جعل الصَّالحين والأنبياء شُفعاء، وجعل الصَّالحين والأنبياء قربة وزُلْفَىٰ إلىٰ الله -جلَّ وعلا- فهٰؤلاء لا تقاتلونهم؟!

لم يأتِ هٰذا التَّفريق؛ بل جاء الأمرُ واحدًا وحُكِم علىٰ الجميع بأنهم كفَّار مشركون، وقوتلوا، وأمر الله -جلَّ وعلا- بقتال جميع تلك الفئات، وجميع أولٰئك المُشركين جاء الأمرُ بقتالهم من دون تفريق: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[٢]، وهٰذا عامٌّ في الجميع، وهٰذه هي النَّتيجة، فما قبلها مقدِّمة.

وإذا كان كذٰلك كان لا فرق بينَ أنْ يَعبد نبيًّا، أو أن يعبد حجرًا أو شجرًا، أو أن يعبد جِنِّيًا، أو أن يعبد ملَكًا، الحال واحدة.

فمن أتىٰ في هٰذا الزَّمان وفرّق وقال: الصَّالحون إنّما هم أولياء ولهم مقام عند الله والأنبياء لهم مقام وجاه؛ فإذا استشفعنا بهم فإنّ لهم جاهًا عند الله جلّ وعلا!

فنقول: وأيُّ فرْقٍ بين عبادة هٰؤلاء الصَّالحين والتَّوجُّه إليهم وبين عبادة من عَبَد عيسىٰ، أو عَبَدَ العُزير، أو عبَد الصَّالحين الذين كانوا يُعبدون؟ أيّ فرْق بين هٰذا وهٰذا؟ لاشكَّ أنّ الحُكم علىٰ الجميع واحد.

وهٰذه قاعدة يقينية من أنَّه لا فرْق بين هٰذا وهٰذا؛ لأنّ المدار علىٰ عبودية القلب، فإذا قام في القلب التَّنديد والإشراك بالله -جلَّ وعلا- فسواء أكان المشرَك به صالحًا أم طالحًا كان نبيًّا أم لم يكن نبيًّا كان شجرًا أم كان ملَكًا الأمر واحد؛ لأنَّ القلب يجب أن تكون عبوديَّتُه لله وحده، وأن يكون دينُه لله وحده ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[٣]، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾[٤].

وهٰذه العبوديّة من جهة العابد لا يُنظر فيها إلىٰ من توجه إليه، فإن توجَّه لله الواحد الأحد فهو مخلص موحِّد، وإن توجَّه إلىٰ غيره فإنه مشرك مهما كان ذٰلك الغير، ولهٰذا قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[٥] وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ يعمّ الجميع كما ذكرنا ذٰلك مرارًا، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَن

---

(١) سورة: الجن.

(٢) سورة: التوبة، الآية (٣٦).

(٣) سورة: الزمر، الآية (٣).

(٤) سورة: الزمر.

(٥) سورة: الجن.

﴿ يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[1]، قال جلَّ وعلا هنا: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾، ﴿ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾، هٰذه صفة من عبَد غيرَ الله جلَّ وعلا؛ في أنّه لا برهان له بما عبَد، وليس لها مفهوم من أن هناك ما يُعبد وثَمَّ برهان عليه! بل كلّ من عَبَد غير الله ودعا غير الله فإنَّه لا بُرهان له علىٰ أحقِّية ذٰلك الغير بالعبادة أو بالتَّوجُّه.

فإذا نظرنا في هٰذا الزَّمن: الذين يعبدون الأولياء، ويعبدون القبور والمشاهد ويتوجّهون إليها، ويعبدون الأنبياء والرُّسل ويقولون: مقامات -ونحو ذٰلك- للصّحابة، أو في كلِّ بلد ثَمَّ ضريح ويتوجَّه النَّاس إليه، ويُشركون به، يقولون: هٰذه ليست هي عبادة المُشركين الأولين، لِمَ؟ قالوا: لأنّ هٰذه عبادة الصَّالحين، وأولٰئك إنَّما عبدوا الأصنام! عبدوا أحجارًا! كيف يكون ذٰلك وقد قال -جلَّ وعلا- في وصف أولٰئك المعبودين: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2] ؟.

قال طائفة من المفسِّرين؛ كأبي حيّان في تفسيره البحر المحيط[3] وقاله غيره: إنَّ هٰذه الآية فيمن يُبعث لأنّ الله قال: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ والذي يُوصف بأنه ميت من كان حيًّا قبل ذٰلك، والأصنام التي هي من الأحجار والأشجار ونحو ذٰلك لا توصف بأنها ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾، وإنَّما الذي يوصف بذٰلك من كان تحلُّه الحياة ثم صار ميتا، فإنه يقال: أموات غير أحياء، وبيّن ذٰلك أكثرَ حينَ قال: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ فإنها بحقِّ من يبعث يوم القيامة للقاء الله جلَّ وعلا.

فإذن هٰذا الذي يحتجُّ به مشركو هٰذا الزَّمان، ومشركو زمان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهٰذا في كلِّ مكان، يقولون: إنَّما توجَّهنا إلىٰ صالحين! نقول: وأولٰئك الأولون إنَّما توجَّهوا أيضا إلىٰ صالحين.

قالوا: نطلب الوساطة؛ ما طلبنا منهم استقلالًا! نقول: والأوَّلون أيضا طلبوا الوساطة والقربة والشَّفاعة، ولم يطلبوا استقلالًا.

فالحال هي الحال، وإن تغيَّرت الأسماء، وتغيَّرت الدَّعاوي، فالحال هي الحال، وما أشبه اللَّيلة بالبارحة.

---

(١) سورة: المؤمنون.

(٢) سورة: النحل.

(٣) قال أبُو حيان في «تفسيره» (ج٥/ ص٤٦٨) بعد أن ذكر أقوالا في تفسير الآية: وتلخص من هٰذه الأقوال أن تكون الأخبار بتلك الجمل كلها عن المدعوين آلهة إما الأصنام وإما الملائكة، وقال الزَّمخشري في «الكشاف» (ج٣/ ٤٣١): ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ أنهم لو كانوا آلهة علىٰ الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي غير جائز عليها الموت كالحي الذي لا يموت، وأمرهم علىٰ العكس من ذٰلك.

[المتن]

القاعدة الرابعة:

أنّ مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأوّلين، لأنّ الأوّلين يُشركون في الرَّخاء ويُخلصون في الشدّة، ومشركو زماننا شركهم دائمًا في الرَّخاء والشِّدّة.

والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[١].

[الشَّرح]

هٰذه القاعدة نتيجة لما سبق، يعني مرتَّبة علىٰ ما سبق.

إذا تقرَّر أنَّ المشركين في هٰذا الزَّمان من جنس المُشركين في كلِّ زمان، من جنس مُشركي الجاهلية، وإن كانوا ينتسبون إلىٰ الملَّة، والإسلام، ولهم صلوات، ولهم تعبُّدات، إذا كانوا من جِنسهم والشِّركُ الذي فعلوه هو الذي فعله الأولون فربما زادت الحال، وهو الذي بيّنه الشَّيخ في هٰذه القاعدة؛ بأن مشركي هٰذا الزَّمان أغلظ شركًا من مشركي أهل الجاهلية، لِمَ؟

لأنّ الله -جلَّ وعلا- وصف أهل الجاهلية بأنهم يُشركون في الرَّخاء، وأمَّا في الشِّدة فإنّهم يوحدون، قال جلّ وعلا: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[٢]، (إليه) يعني: دون ما سواه ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾.

وقال جلّ وعلا -في بيان حالهم في البحر-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[٤]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[٥].

إذا تأملت الحال والحال:

فأولٰئك يُشركون في حال الرَّخاء، وأمَّا إذا مسّتهم البأساء ومسّتهم الضَّرَّاء فإنهم يُخلصون ويوحِّدون؛

---

(١) سورة: العنكبوت.

(٢) سورة: النحل.

(٣) سورة: يونس.

(٤) سورة: العنكبوت.

(٥) سورة: لقمان.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أمَّا مشركو هٰذه الأزمنة فإنهم إذا مسَّهم الضُّر فزعوا إلىٰ العيدروس أو إلىٰ الحسين، أو إلىٰ البدوي، أو إلىٰ المرغيناني، أو إلىٰ... أو إلىٰ... إلىٰ آخر أنواع النَّاس أو الموتىٰ الذين يتوجّهون إليهم، إذا مسَّتهم الضَّرَّاء فزَعوا إلىٰ الأشجار، إلىٰ أحجار ونحو ذٰلك.

وهٰذا لا شك أنه أعظم من شرك الأولين؛ لأنهم يشركون في الحالين، والمشركون الأولون يشركون في حالٍ واحدة، ويتذكَّرون في الحال الثَّانية.

ولٰكن من يفقه هٰذا؟ ومن يعلَم هٰذا؟ ومن يَشِفُّ عليه هٰذا الأمر حتىٰ يكون يقينيًّا عنده، لا مراء فيه، ولا لَبس؟ لأنَّ بعض النَّاس قد يقول هٰؤلاء يصلُّون، ويزكُّون، ويصومون؛ فكيف يكونون أغلظَ شركًا من الأولين؟!

نقول: العمدة علىٰ أصل الدِّين؛ لأنَّ هٰذه العبادة بلا توحيد لا تنفع، كما ذكرنا في أوَّل الكلام، كما لا تنفع الصَّلاة بلا طهارة، فإذا كانت هناك عبادات عظيمة ومع الشّرك فإنها لا تنفع ولا تُقبل، فكيف إذا كان يُشرك في حال الرّخاء وفي حال الشِّدة؟

وقد ذكر بعض العلماء أنه لقِي رجلًا من أهل الطَّائف، قبل انتشار الدَّعوة هناك ومعرفة النَّاس بالدَّعوة والتَّوحيد.

فقال له هٰذا: هٰؤلاء أهل الطَّائف إذا جاءتهم شدة فزعوا إلىٰ ابن عباس! ولا يعرفون الله.

فقال الآخر له: معرفة ابن عباس تكفيهم!!

وهٰذا نوع من أنواع الشّركيات التي تغلغلت في النُّفوس، نَسُوا معها الله -جلَّ وعلا- في الرَّخاء، وفي الشِّدة، إلَّا ما نذر.

وهٰذا كثير، كثير اليوم، فحرِّك ترَ، والنَّاس في عجب في هٰذا الأمر، والله -جلَّ وعلا- أنعم علينا في هٰذه البلاد أنَّا لا نرىٰ ولا نسمع ما يُقلقنا من هٰذه الأمور الشِّركية، والكفر الأكبر، والشِّرك الأكبر بالله جلَّ وعلا، ومن ذهب إلىٰ البلاد التي تكثر فيها الشِّركيات؛ كبعض جهات مِصر، وبعض جهات السُّودان، وإفريقيا، وبعض جهات الباكستان، والهند، ونحو ذٰلك، والعراق، وسوريا، ونحو ذٰلك رأىٰ عجبًا، والنَّاس يتوجَّهون إلىٰ هٰذه الأضرحة، وإلىٰ مدافن الأولياء، بل وغير الأولياء، ويعتقدون فيهم اعتقادات، جعلوا لهم نصيبًا من الإلٰهية.

والله -جلَّ وعلا- له الحق الأعظم في إخلاص الدين له، وأعظم ما يستحقّ -جلَّ وعلا- أن يُعبَّد القلب له، وأن لا تكون ثَمّ عبادة إلَّا له سبحانه دونما سواه، كما قال جلَّ وعلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[1]، وقال -جلَّ وعلا- في الحديث القدْسي: «**أنا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك؛ مَنْ عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه**»[2]، وإذا كان هـٰذا في الرِّياء، يقصد المرء بالعمل غير الله جلَّ وعلا؛ يقصد رؤية فلان، فكيف بالتَّوجُّه بالعبادة لغير الله جلَّ وعلا؟! كأنْ يدعو غير الله، وأن يستغيث بغير الله، أو أن ينذر لغير الله، أو أن يذبح لغير الله، أو أن يستعيذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، أو أن يستغيث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، التَّوجه إلىٰ الموتىٰ والاعتقاد فيهم، ويسمّون ذٰلك السّر؛ يُقال: روح السَّيد فيها سر، ولهٰذا يجعلون مكان (الرُّوح) كلمة (سر)؛ فيقولون: هٰذا له سر، وقدّس الله سرّه؛ لأنهم يجعلون لأرواح أولٰئك أسرارًا، وروحه ليس فيها سر، إلا سِرُّ صُنْعها وخلْقها من الله جلّ وعلا، أمَّا أنها تغيث من استغاث بها أو تُعطي من طلب منها فهٰذا كلّه ليس إلّا إلىٰ الله جلّ وعلا؛ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[3].

وقال جلّ وعلا -مخبرًا عن حال الكفَّار في النَّار-: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[4]، قال العلماء: ما سوَّوهم بربِّ العالمين في أنهم يخلقون، ويرزقون، ويُحْيُون، ويُميتون، وإنَّما سوَّوهم بربِّ العَالمين في العبادة، في أنْ توجَّهوا لهم ببعض العبادة، فصاروا مسوِّين لهٰذه الآلهة الباطلة بالله -جلّ وعلا- في استحقاق العبادة، لأنهم عبدوا الله، وعبدوا غيره، فساوَوْا الخلق بالخالق جلَّ وعلا، وهٰذا أبشع ما يكون من الظلم، وأقبح ما يكون من الاعتداء علىٰ حق الله جلّ وعلا، إذْ حقُّه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- إجلالُه، وتعظيمه، وتوحيده، والإخلاص له، والاعتراف له بكلِّ كمال، ووصفه -جلَّ وعلا- بنعوت الجمال والجلال والكمال، وسَل رؤية النفس، وأنه ليس ثَمّ خير إلَّا منه سبحانه، وليس ثَم اندفاع شر إلَّا منه سبحانه، فنحن إنَّما نتقلّب بفضل الله وبنعمته.

فهٰذا الأمر إنَّما يعود إلىٰ أصل تلك الدَّعوات الثَّلاث.

نسأل الله -جلَّ وعلا- أن يجعلنا ممن: إذا أُعْطي شكر، وإذا ابتُلُي صبر، وإذا أذنب استغفر.

وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمَّد.

(١) سورة: الكهف.

(٢) أخرجَه مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ (ح٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سورة: البقرة.

(٤) سورة: الشُّعراء.

المُحتَويَات

مقدمة المؤلف ٢
أهمية رسالة القواعد الأربع ٢
عنوان السعادة ٣
عبادة الشكر عند العطاء ٣
الفرق بين الحمد والشكر ٤
عبادة الصبر علىٰ البلاء والاستغفار من الذنب ٥
تلازم الشكر والصبر والاستغفار ٥
حقيقة الحنيفية ٦
معنىٰ لا إله إلا الله ٦
التوحيد شرط العبادة كاشتراط الطهارة للصلاة ٧
الخوف من الوقوع في الشرك والفرح بالتوحيد ٨
عظم مسألة الحكم علىٰ أهل الإشراك ٨
القاعدة الأولى: توحيد الربوبية وحده لا يدخل أحدا في الإسلام ٩
من براهين توحيد العبادة أن تقام الحجة بتوحيد الربوبية ٩
غلط المتكلمين في تعريف الإله وأثر ذلك علىٰ دين الإسلام ١٠
القاعدة الثانية: دعاء وتوجه المشركين لغير الله كان لطلب القربة والشفاعة ١١
زعم المشركين أن الآلهة تقربهم إلىٰ الله زلفىٰ وتشفع لهم عند الله عز وجل ١١
أصل شرك العالم ١٢
الاعتقاد في روحانيات الكواكب ١٢
الاعتقاد في روحانيات وأرواح الصالحين ١٣
أنواع الشفاعة ١٣
الشفاعة المنفية ١٣
الشفاعة المثبتة ١٤
الشفاعة تكون إلا لأهل الإخلاص ١٥
القاعدة الثالثة: المشركين الذين ظهر فيهم النبي كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين والأشجار والأحجار والشمس والقمر ١٦
أصناف المشركين ١٦

الأمر بقتال جميع أصناف المشركين ١٨
عبادة الصالحين شرك لا فرق بينها وبين عبادة الأشجار والأحجار ١٨
الرد علىٰ من فرق بين عبادة الأصنام وعبادة الصالحين ١٨
القاعدة الرابعة: مشركو زماننا أشد شركا من مشركي أهل الجاهلية ٢٠
مشركي زماننا مشركون في الشدة والرخاء ومشركي أهل الجاهلية يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة. ٢٠
نعمة التوحيد علىٰ بلاد الحرمين ٢١
الخاتمة: حق الله علىٰ العباد أن يخلصوا له الدين ٢١